المحاضرتان السابعة والثامنة :تجربتا تودوروف وجيرار جينات في تحليل الخطاب السردي

السرد عند تزفيتان تودوروف.

سنحاول رصد ودراسة مصطلحات نقد السرد التي وظّفها تزفيتان تودورف في أهم دراستين خصصهما لنقد رواية فلوبير (العلاقات الخطرة) . واللتين سعى فيهما إلى بناء نظرية في تحليل السرد، تحاول دراسة مكونات العمل الروائي، وفي أثناء ذلك، تأتي له بناء منظومة اصطلاحية يرى فيها القدرة على استيعاب المفهومات النقدية المطروحة للتداول المعرفي، والحاملة للأفكار الجديدة أو المطوّرة حول قضايا السرد، وأسئلته، والدراستان هما: الأدب والدلالة ـ فئات السرد الأدبي، وسننتقل، في رصدنا لمصطلحه النقدي، كما مع غيره من النقّاد، من العام الكلي إلى الخاص الجزئي؛ لنكسب فرصة متابعة المفهومات المجسّدة في مصطلحاتها، وهي تتدرج في مراتب ترتيب الأفكار حول العمل السردي الروائي.

الوحدة الكلية ... L'unite generale

يستخدم تزفيتان تودوروف؛ لتسمية العمل السردي في مجموعه، وقبل أن يصير موضوعاً للتفكيك النقدي، مصطلحات مختلفة، ونشدد هنا على صفة الاختلاف؛ لنصحب حالة مصطلح نقد السرد في سياق التوظيف، وكيف كانت هذه الحالة؟ لنسجل، من ثم، تشخيصاً لها في منتهى حديثنا.

كما أسلفنا، يسمي تودوروف العمل السردي الروائي بمستوياته المكوّنة له سواء على مستوى المحكي أو على مستوى الخطاب بمصطلحات مختلفة، هي:

ـ Enonce الذي نميل إلى تبني ترجمته بالدال (الملفوظ) ، ومفهوم هذا المصطلح: "تمفصل" المستويات البانية للرواية 8، أي جماع العمل السردي بعناصره المتعددة المكوّنة له.

ولا يخفى أن مصطلح (Enonce ملفوظ) يترجم عن تأثر بعلم اللغة البنيوي الذي يستفيد من تشييد تقسيم للظاهرة اللغوية إلى: ملفوظ Enonce وتلفظ Enonciation، وتعود هذه الثنائية المصطلحية للغوي الفرنسي إميل بنفنست. ويشي هذا التقسيم بحرص تزفيتان تودوروف على علمية نقد الأدب عموما، ونقد السرد خصوصاً، وهو ما يصرّح به في مقدمة

كتابه (الأدب والدلالة) ، يقول: (إن العمل الذي نزعم القيام به يدعي التموضع في إطار منظور علم الأدب، وهو ما نسميه عادة بالشعرية) 9؛ وتأسيساً على هذا المبدأ، يسمي تودوروف العمل السردي بتمامه، وقد صار موضوعاً للمساءلة النقدية الشعرية (بمعناها البنيوي الخاص) ... (بالملفوظ) تمييزاً له من مصطلح (التلفظ) ، الذي يتصل في مفهومه بالكاتب، والبعد الوظيفي التداولي لعملية التواصل الأدبي.

- Reci "الحكي" ، في الكتاب نفسه يطلق تودوروف مصطلح (حكي) ؛ لتسمية حاصل لقاء المستويات البنائية للعمل السردي الروائي 10، يقول: (سيكون مصطلح الحكي موظّفاً، هنا، بمعنى عام يستوعب الجوانب المذكورة الثلاثة للملفوظ الروائي) 11، وفي معرض حديثه عن قرب العلاقة بين الرؤية وسجلات الكلام، يمنح مصطلح الحكي Recit المفهوم العام نفسه (إن فئتي الرؤى وسجلات الكلام في (الحكي) تتصفان بكونهما تُدرجان في علاقة جد لصيقة) 12؛ فيجعل، بذلك، الحكي مصطلحاً جامعاً يسمي تمام العمل السردي المتضمّن لمكوّناته المختلفة.

وفي بحثه الرائد (فئات السرد الأدبي) يُطلق تودوروف مصطلح (الحكي) بمفهومه الجامع لكل مكوّنات العمل السردي؛ فيستعمل هذا المصطلح استعمالاً عاماً، بالمفهوم السابق، مع تقييده كل مرة بربطه بمكون من مكوني العمل السردي، وقد كان ذلك، وهو يهمّ بالحديث عن هذين المكونين، فيجعل عنوان حديثه عن كل مكون كالتالي:

1 - الحكي بوصفه قصة ... Le recit comme Histoire

2 - الحكي بوصفه خطاباً ... Le recit comme discours 13

وقد اجتمع هذان المكونان: القصة والخطاب تحت عنوان (الحكي) ؛ محققاً بذلك حصول المفهوم العام الذي يعين العمل السردي موضوع الدراسة النقدية.

- L'oeuvre "العمل" . إلى المصطلحين السابقين، يضيف تزفيتان تودوروف مصطلح (العمل) تسمية للعمل السردي الروائي في عمومه، ويكسبه مفهوم الموضوع الكلي الجامع لمكوناته مجال الدراسة النقدية (العمل هو أكبر وحدة أدبية) 14، وله (جانبان: جانب القصة، وجانب الخطاب) 15، ومع غيره من الأعمال الأدبية الموجودة سلفاً، يشكل ما يعرف بعالم الأدب 16؛ فيستحيل مصطلح (العمل) تسمية تعيّن العمل

السردي برمته، الذي صار موضوعاً خارجياً يتهيأ للدراسة والنقد، ويُنظر إلى مكوّناته المتعددة، بوصفها عناصر جزئية تقبل التفكيك، ومن ثم إعمال الفحص المعرفي فيها.

مكونات الوحدة الكلية ... Les composantes de l'unite generale

ينحو تزفيتان تودوروف إلى إطلاق مصطلحات نقدية لتسمية المكوّنات التفصيلية البانية للعمل السردي الروائي متأثراً بتطور الفكر النقدي، وما يمليه هذا التطور من مراجعات تدفع إلى إعادة صياغة المصطلح، وأحياناً إلى إعادة ضبط وتوجيه دلالته، فقد بدأ تودوروف مع ثلاثية مصطلحية؛ اعتماداً على تقسيم ثلاثي للعمل السردي:

1 ـ المكوّن المرجعي للعمل السردي الروائي Referentiel ويحدده بكونه (العالم المُمثل Univers represente) أي (ما تستدعيه الرسالة الروائية) 17.

2 ـ المكوّن الحرفي للعمل السردي الروائي Litteral، ويحدده بكونه يمثل (مستوى الكتابة) 18، أي (ماعليه الرسالة الروائية نفسها) 19.

3 ـ مكوّن إجراء التلفظ للعمل السردي الروائي Proces d'enonciation ، ويحدده بكونه (قضية التلفظ والتواصل الإبداعي) أي (الرسالة الروائية بوصفها حدثاً) 20.

يشي التقسيم الثلاثي السابق بحرص تودوروف، في سياق اتجاه نقدي شامل، على تفكيك كتلة العمل السردي الروائي إلى عناصره البانية له؛ لفرزها، وتحديد ما يمكن أن يكون موضوعاً للتفكير النقدي الشعري الذي يستهدف (صفات وممكنات الخطاب الأدبي) 21، في إطار مطلب (علمية واستقلال الدراسة الأدبية) الذي هيمن مع شيوع اتجاهات النقد النصي للأدب.

ويترتب على التقسيم الثلاثي السابق، سؤال أي من الأقسام السابقة يمكن أن يكون موضوعاً لهذه الدراسة المرجوة والمبتغاة؟ وسنرجئ مناقشة الإجابة عن هذا السؤال، إلى حين الانتهاء من استدعاء تقسيم آخر، قام به تودوروف في دراسة أخرى، وأعمل في أثنائه مصطلحات نقدية تختلف بدرجة واضحة عن المصطلحات التي جرى تثبيتها آنفاً.

يطرح تزفيتان تودوروف مصطلحين جديدين يجعل منهما عنوانين رئيسين يقسّم من خلالهما العمل السردي الروائي. فيطلق مصطلح: القص Histoire 22.

تسمية للمكوّن الأول للعمل السردي الروائي، وبه يقصد مفهوماً محدداً، (إنها "القصة" التي تتصل بواقع مثبت، أو بأحداث وقعت) 23.

ويقابل هذا المصطلح، مصطلح الخطاب Discours 24 الذي يعني أن هناك (راوياً يحكي القصة، وبإزائه هناك قارئ يتلقاها، وعندها، ليست الأحداث ما يَهُم، بل الطريقة التي من خلالها يعرّفنا الراوي بالقصة) 25.

القصة مصطلح يسمي مفهوماً خاصاً، وهو المحكي وما وقع، وما يجري الإبلاغ عنه، أما الخطاب فإنه مصطلح يفيد مفهوماً تواصلياً، في إطار التواصل الإبداعي السردي: طرفاه الراوي والمتلقي. وبذلك يعتمد تودوروف في هذه الدراسة تقسيماً ثنائياً لمجمل العمل السردي الروائي، وقد اختلف المصطلحان اللذان أطلقهما عنوانين لهذه الثنائية عما سبق من مصطلحات وقفنا على طبيعتهما فيما مضى، مستفيداً من تطور الدرس اللساني الذي ألهم النقّاد كثيرا من الأفكار والرؤى عند دراسة النص الأدبي. ويسوقنا هذا التقرير إلى استدعاء نقاش موازٍ في علم اللغة أقامه اللساني الفرنسي إميل بنفنست، وفيه يوظّف مصطلحي القصة والخطاب؛ للتمييز بين ركني الرسالة اللسانية: المضمون والشكل.

وبالعودة إلى السؤال السابق حول أي من مكونات العمل السردي يمثل موضوعاً للتحليل السردي الشعري؟ فإننا سنجد تودوروف يجيبنا عنه في بحثه (فئات السرد الأدبي) ، مصرحاً بأن (الخطاب Discours) في العمل السردي الروائي، هو المجال المُستهدف بالدراسة والتحليل، وأن صور وحالات هذا المكوّن تشكّل موضوع انشغالات محلل السرد؛ للخروج بتصور نقدي شامل يقبل الإعمال على كل النصوص من نفس الجنس الأدبي.

يقول تودوروف: (إن مهمتنا، هنا، تقوم على اقتراح نظام من المفاهيم يمكن لها أن تخدم دراسة الخطاب الأدبي، وهو "الحكي") 26، فالناقد ينصرف تحديداً إلى الخطاب أي الحكي لا المحكي، وقد صدر عنه تأكيد آخر لهذا التحديد، عندما يقول: (إننا ننظر إلى الحكي بوصفه فقط خطاباً: كلاماً حقيقياً مرسلا من طرف
السارد إلى القارئ) 27. وهو ما تتفق، بالفعل، عليه أغلب دراسات السرد البنيوية، التي جعلت مكوّن تجسيد العمل السردي في حكي، موضوعاً للنقد والتحليل.

وتأسيساً على هذا التحديد، فإن مصطلح الخطاب يسمي المكوّن المقصود بالدراسة، وهو القسم الثاني في ثنائية تودوروف الأخيرة، ولكن فيما يتصل بتقسيمه الذي تقدّم، ونعني بذلك الثلاثية المصطلحية التي طرحها وتناولناها في سياق سابق، فإن المصطلح الذي يعيّن موضوع النقد والتحليل هو: (إجراء التلفظ) ، أي القسم الثالث في ثلاثيته.

فإن كان (خطاب الحكي) هو ما يرتضيه تودوروف موضوعاً للدراسة، فإن (إجراء التلفظ في الحكي) هو المصطلح الذي يعادله، وما يأتي تحته من قضايا ومعالجات هي تماماً ما يجري دراستها تحت عنوان (خطاب الحكي) ، بمعنى أن القضايا التي يتناولها تودوروف بالدراسة تحت مصطلح خطاب الحكي، هي نفسها التي يشتغل عليها تحت مصطلح إجراء التلفظ؛ ففي الموضعين يعكف تودوروف على دراسة (الرؤية) و (الصيغة) ، وإن بمصطلحات تختلف كما سنعرف لاحقاً. فالمكوّن المرجعي يتصل بما يطلق عليه تودوروف مصطلح القصة، وقد وقفنا على مفهومه، أما المكوّن الثاني الذي يصطلح عليه بالمكوّن الحرفي فإنه يختص بالصور والتشكيلات الأسلوبية والبلاغية، مستوى الكتابة.

لقد تنوعت المصطلحات المُحدّدة لمكوّنات العمل السردي الروائي عند تودوروف تنوعاً يشي بحركيتها، ومرونة الناقد في التعاطي معها؛ استجابة لشرط التجديد، ومتابعة ما ينتجه النقاش النقدي من تحوّلات وتحديدات.

قضايا مجال سرديات الخطاب.

عرفنا أن تودورف ينصرف إلى كيفيات الحكي ومستوياته عند دراسة العمل السردي الروائي، ويجعل من هذا المكون موطن إعمال التفكير النقدي، والتأمل العقلي، في إطار طموح عام وضاغط يرجو علمية الدراسة

الأدبية، وموضوعيتها، ويقوم على تقديم قوانين إنتاج النص السردي بوصفها مكمن خصوصيته الإبداعية، وهي التي يتجه إليها الدرس النقدي. والهدف دائماً، كما في كل دراسة علمية، طرح مفاهيم وإجراءات نقدية تقبل التعميم على كل النصوص السردية.

وانسجاماً مع هذا التصور، يضع تودوروف مصطلح (إجراء التلفظ) عنواناً لمجال دراسة من النوع الذي حدّدنا طبيعته سلفاً، وتحت هذا المصطلح (العنوان) يقدّم تودوروف مصطلحين (عنوانين) آخرين:

1 ـ رؤى السرد ... Les visions du recit

ومفهوم هذا المصطلح: أن (الرؤية تعكس علاقة بين (هو) فاعل الملفوظ و (أنا) فاعل التلفظ، بين الشخصية والسارد) 28. وتحت هذا المصطلح يقيم تودوروف تفصيلاً مفهومياً، يستفيد فيه من الترميز المصطلحي؛ محاولاً، بذلك، تجاوز كل المصطلحات النقدية السابقة التي جرى توظيفها عند الحديث عن الرؤية في السرد، وهي مصطلحات قد تعددت وتنوعت، انطلاقاً من النقد السردي الإنجليزي إلى النقد الألماني، وانتهاء بجان بويون في نقد السرد الفرنسي.

لقد جرى الترميز المصطلحي لتودوروف على النحو التالي:

ـ السارد > الشخصية (السارد أكبر من الشخصية) .

Narrateur > Personnage

ـ السارد = الشخصية ... Narrateur = Personnage

ـ السارد < الشخصية Personnage > Narrateur

فأوجد تودوروف مصطلحات دالة بنفسها، دونما ضرورة إلى تفصيل مفهومي يظهر طبيعة المصطلح، كما هو الحال، مثلاً، مع مصطلحات الفرنسي جان بويون، التي عند ذكرها يلزم سوق مفهوماتها تبعاً، وبالضرورة، فعندما يقول بويون:

(الرؤية مع Vision avec) فإن طلباً على إيضاح المفهوم يبرز مباشرة، وبخلاف مصطلح تودوروف، لنفس المفهوم: السارد = الشخصية.

ويرجع السبب إلى أن الترميز المصطلحي لتودوروف قد جاء حاوياً جميع أطراف المسألة النقدية المتعلقة بالرؤية من هذا النوع؛ فهناك: السارد (الرائي) والشخصية (المرئية) ومستوى ودرجة الرؤية بينهما (=) ؛ فصار المفهوم جلياً، معلناً عن نفسه من خلال هذا الترميز المصطلحي.

كما أننا نلمح حرصاً من تودوروف على إكساب مصطلحه صفة العلمية، مستفيداً من علوم أخرى (الرياضيات) في صوغ مصطلحه؛ الأمر الذي يشي ببعدين لا بأس من التذكير بهما ما دمنا بصدد الحديث عن التوظيف المصطلحي.

بُعد علمي تجريدي، يُظهر الحرص على علمية المصطلح من خلال محاكاة علم عقلي تجريدي (الرياضيات) ، والاستفادة من مصطلحه؛ فيخطو الناقد، بذلك، خطوة مهمة في اتجاه علمية الدراسة الأدبية.

وبُعد معرفي (إبستمي) ، يتصل بانفتاح الحقول المعرفية، وجدل المعارف: أخذاً وعطاءً، في سياق تبادل مشروع للمصطلحات، وربما المفاهيم، وهو ما تجلى في استعارة تودوروف الترميز المصطلحي الرياضي.

2 ـ سجلات الكلام Les registres de la parole

هو المصطلح الآخر من مصطلحي (إجراء التلفظ) ، ويقصد تودوروف بمصطلح (سجلات الكلام) (الطريقة التي بها يعرض السارد القصة، ويقدمها) 30، وهو بخلاف المصطلح السابق الذي يتعلق (بمن يرى) ، فمصطلح سجلات الكلام، يطرح سؤالاً من نوع آخر: من يتكلم؟ وبأية طريقة يتكلم؟ وإجابة عن هذا السؤال المركب، يطرح الناقد مصطلحين تفصيليين آخرين، هما:

ـ مصطلح التمثيل: ... Representation

ـ مصطلح السرد: ... Narration

ومفهوم مصطلح التمثيل أن الكاتب (يظهر الأشياء) ، في حين أن المصطلح الآخر (السرد) يحيل على مفهوم أن الكاتب (يقولها) 31.

في دراسته (فئات السرد الأدبي) ، يحدد تودوروف، وبجلاء، أن الحكي بوصفه (خطاباً) هو مجال انشغاله النقدي، وهو ما قد جئنا على التشديد عليه في مناسبة سابقة، فالخطاب السردي هو ما يُعنى به تودوروف 32، وهو خطاب (حقيقي مرسلٌ من الراوي إلى القارئ 33) ، وتأسيساً على حقيقته هاته، يعكف الناقد على دراسة خصائصه من خلال مصطلحات ثلاثة:

1 ـ زمن السرد Temps du recit

ومفهومه يقوم على رصد العلاقة بين (زمن القصة وزمن الخطاب) 34، وقد نجم عن هذه العلاقة مصطلحات:

ـ الترتيب التسلسلي Enchainement

والذي يعني تقريب قصص مختلفة، وما إن تنتهي القصة الأولى حتى تبدأ الثانية.

ـ الترصيع Enchassement (مصطلح بصري)

ويقوم مفهوم هذا المصطلح على تضمين قصة داخل قصة أخرى.

- التناوب Alternance

وهو حكاية قصتين في زمن واحد، قاطعاً السارد الأولى تارة لمصلحة الأخرى أو العكس 35.

- وجوه السرد Les aspects du recit 2

حيث تُدرس كيفية تصور وإدراك القصة من طرف السارد 36، وتحت هذا المصطلح (العنوان) ، يعيد تودوروف إنتاج المصطلحات نفسها، التي وظّفها تحت عنوان (رؤى السرد) ؛ فتغير المصطلح الرئيس والعام واختلف بين (الرؤى) و (وجوه) ، وبقت تفاصيله المفهومية على حالها، كما بيّناها سلفاً، وإن كان مفهوم
مصطلح (وجوه السرد) قد بدا أكثر شمولاً وتجريداً من مفهوم مصطلح (الرؤى السردية) الذي تحدّد، وأصابه الضيق؛ عندما قصره تودوروف على العلاقة بين السارد والشخصية، لتحلّ محله، مع المصطلح الآخر، العلاقة بين السارد والقصة بعمومها وسعتها.

- صيغ السرد Les modes du recit 3

مرة أخرى يأتي تودوروف على تغيير مصطلحه، واستبداله؛ فهو يستخدم في دراسته فئات السرد الأدبي مصطلح (الصيغ) الذي احتفظ بالمفهوم نفسه لمصطلح (سجلات الكلام) ، فلم يطرأ على مفهوم هذين المصطلحين أي تغير من أي نوع؛ فكانت الإضافة مصطلحية لا مفهومية، لينتقل الناقد بين مصطلح مركب (سجلات الكلام) ، ومصطلح مفرد (صيغ) ، محتفظاً، في الوقت نفسه، بالتفاصيل المفهومية التي يحيل عليها مصطلح (الصيغ) الذي يعني الطريقة التي بها يقدّم الراوي القصة،
وهو ما يحيلنا على الآداء Representation ويعرضها 37؛ فتُقدّم القصة إمّا تمثيلاً
المسرحي للأحداث، وإما سرداً كما يقع في التاريخ 38.

مصطلح نقد السرد عند جيرار جنيت.

ينطلق مشروع جيرار جنيت النقدي من طموح بنّاء، يحاول بناء نظرية كاملة تنهض بمهمة نقد السرد الروائي، وتستوعب كل صفاته وخصائصه استيعاباً تحليلياً لا يفلت منها شيء عند الدراسة. ولا يخفى أن هكذا طموح يصدر، كما أسلفنا القول، عن رغبة ضاغطة تدفع باتجاه تأسيس الدراسة الأدبية على تصور علمي يتجاوز مراحل النقد الانطباعي،

والعلمي الخارجي، وأقصد بتعبير العلمي الخارجي، الاحتكام إلى معارف من خارج الأدب عند محاولة نقده وفهمه.
في سياق هذا الطرح القاصد إلى علمية الأدب، اعتماداً على دراسة مكوناته نفسها،
عام 1972، Discours du recit قدّم جيرار جنيت كتابه المهم (خطاب السرد)
وقد طرح في هذا الكتاب تصوره لنظرية نقدية تجيب عن أسئلة الخطاب السردي. وفي أثناء دراسته، استطاع الناقد اقتراح منظومة مصطلحية واسعة، غلبت عليها نزعة التجديد، والسعي إلى تجاوز عديد المصطلحات النقدية التي تداولها من سبق من نقّاد السرد الفرنسيين أو الأوروبيين.
لقد كان جنيت قاصداً إلى التجديد المصطلحي؛ انسجاماً مع مطلبين متكاملين: مطلب علمية الدراسة الأدبية الذي يدفع باتجاه لغة تتسم بموضوعيتها وحياديتها، وقد عبّر عن هذا المعنى في سياق تبريره لتبني بعض المصطلحات: (لتجنب كل
أو استرجاع Anticipation إيحاء نفسي مرتبط باستخدام مصطلحات مثل (استباق
) التي تحيل تلقائياً على ظواهر ذاتية، فنحن نبعدها غالباً لمصلحة Retrospection
مصطلحين أكثر حيادية) 39.
ومبرر الإيحاءات الخارجية يسوقه كذلك، وهو يطرح مصطلحه المُجترح ذاتياً (

40. Focalisation التبئير)
وللناقد جنيت مطلب آخر يدفعه إلى التجديد المصطلحي، والحرص على طرح مصطلحات تعود إليه، ونقصد به مطلب النظرية السردية التي يسعى جنيت إلى تأصيلها وتكريسها؛ فالناقد يعي أن إنجاز هكذا غاية لا يكتمل إلا بعد طرح مصطلحات نقدية جديدة، تتجاوز المطروح سلفاً في إطار الدراسة النقدية الجزئية للسرد، فما طرحه النقّاد الإنجليز، أو الألمان، أو سابقوه من النقّاد الفرنسيين من مصطلحات نقدية، لم يكن متمشياً إلا مع دراساتهم الجزئية لمستوى أو مكون وحيد من مكوّنات

السرد الروائي، كما كان الأمر مع دراستهم للرؤية أو للصيغة، وأحياناً لمكون الزمن.

وعند مشيئة إنجاز نظرية نقدية متكاملة؛ تستوعب موضوعها، وتفهم وتعي ما سبق من دراسات للجنس الأدبي نفسه، لابد لذلك من أن تتوافر له كل شؤونه، بما في ذلك الشأن المصطلحي، وقد كان لجيرار جنيت مبتغاه في نظريته (خطاب السرد) ؛ إذ كان طابع التجديد والتأسيس المصطلحي ملمحاً مهيمناً في كتابه المعتمد في هذه الدراسة، بل إننا لا نجني على مجهود الرجل، إذ قلنا إن كثيراً من جاذبية وإثارة نظريته في نقد السرد

مردها إلى حرصه على الإضافة المصطلحية: اجتراحاً، وضبطاً، وتفصيلاً، وهنا نذكّر بحيوية قضية المصطلح في كل شأن معرفي، فمادام هناك تجديد، وإضافة، وضبط وتأطير؛ انعكس ذلك مباشرة وبوضوح على المصطلح الموظّف.

الوحدة الكلية ... Unite generale

يعتمد جيرار جنيت مصطلحين كبيرين لتسمية الوحدة الأدبية الكلية، مصطلح

؛ إذ به يسمي Recit عام يكتسب مفهومه من الجنس الأدبي السردي وهو: الحكي

كل الجنس الأدبي السردي الذي يستقلّ بخصائصه البنائية المميزة له، والمانحة

) أي بناء Discours du recit لخصوصيته، فعنوان كتاب جنيت (خطاب الحكي التواصل بواسطة السرد وكيفياته، فالناقد يبحث في الخطاب فقط في السرد، غير معنيٍ بما عداه من مكوّنات ومستويات بنائية 41؛ فيكون مصطلح الحكي مصطلحاً معيّناً ومسمياً للوحدة الكلية (الحكي) ، تمييزاً له من أجناس أدبية أخرى؛ ويصير الحكي عموماً: قصة، وخطاباً وغير ذلك هو مدلول هذا المصطلح.

وبموازاة مصطلح (الحكي) يطرح جيرار جنيت مصطلحاً آخر لتسمية الوحدة الكلية السردية وهو (العمل) 42، والذي يقصد به رواية محددة في إطار الأدب السردي؛ فيسمي رواية (بحثاً عن الزمن المفقود) لمارسيل بروست عملاً، وقد أنجز نظريته في تحليل السرد اعتماداً عليها نموذجاً وموضوعاً للدراسة؛ فينتقل جيرار جنيت من مصطلح عام هو الحكي إلى

آخر خاص وأكثر تحديداً هو (العمل) ، الذي يسمي منجزاً روائياً محدداً لهذا الروائي أو ذاك، في إطار كلية جنس أدبي هو الحكي.

مكوّنات الوحدة الكلية Les composantes de l'unite generale

يقيم جيرار جنيت تقسيماً ثلاثياً لمكوّنات العمل السردي. ويفعلُ ذلك انطلاقاً من قراءة فاحصة للعمل السردي الروائي من جهة، ومن قراءة متبصّرة للدراسات اللغوية و النقدية الحديثة التي انشغلت بمستويات الرسالة أو النص اللغوي والأدبي، ويذكر أن المصطلحات التي يطلقها تسمية لكل مكوّنٍ من مكونات العمل

السردي، إنما تأتي رغبة في تثبيت مصطلح مضبوط ومحددٍ، يستوعب الإحالة الدلالية التي تنشأ عند استعماله، في إطار فهم مجتهد لضرورات الدراسة العلمية للأدب من خلال خطابه، ونرصد في هذا السياق تعليقه على ثنائية الشكلانيين الروس عندما

) (شكل - محتوى قصصي) ، وكذلك Sujet - Fable قسموا العمل السردي إلى: (

) ، واصفاً المبادرات المصطلحية Discours - خطاب Histoire بنفنست (قصة

بعجزها عن الوفاء بمتطلبات النقاش النقدي، والتحليل البنّاء اللذين يحتاجهما تحليل

43. Narratologie السرد الحديث

لا يفتأ جنيت يحيل على مصطلحات سابقة من نقّاد السرد، ولا يفتأ يظهر ما يطال هذه المصطلحات من خلل يُعاب على المصطلح عند بنائه وصوغه؛ بالنظر لاشتراطات نظرية المصطلح، ومتطلبات إقامته، وقد سبق وان توقفنا عند استهجانه لمصطلحات أطلقت حول أقسام الزمن السردي، وحول الرؤية، وكذا الأمر ينسحب على ما جئنا على ذكره آنفاً؛ وكأن جزءاً مهماً من انشغالات جنيت النقدية قد استحال جهداً مصطلحياً، ينصرف إلى إعادة إنتاج مصطلحات جديدة أكثر كفاءة، ومُلاءمة لمقاربة العمل السردي الروائي من جهة، وأقدر على تقديم المفهومات النقدية المستخدمة حول السرد في دوال مصطلحية فعّالة.

تتوزع مصطلحات جنيت؛ تسمية لمكوّنات العمل السردي، على النحو الآتي:

- Histoire 1 ، ومفهومه: المدلول أو المحتوى السردي 44، وهي مصطلح القصة
مجموع الأحداث المروية 45.
- Recit 2 ، ومفهومه: الدال، الملفوظ، والخطاب أو النص السردي مصطلح الحكي
نفسه 46. وهو الخطاب منطوقاً أو مكتوباً الذي يروي الأحداث 47.
- Narration 3 : الفعل السردي في إطار الإنتاج التواصلي، محيلاً مصطلح السرد
على السياق الواقعي أو المتخيل الذي يندرج فيه الفعل السردي 48، وهو الفعل الذي ينتج الخطاب، أي فعل تفعيل السرد 49.

يمكن أن نعلق على هذه التنويعة المصطلحية الثلاثية بانطباعين: أن هذه المصطلحات الثلاثة توازي ثلاثية تودوروف المصطلحية في كتابه (الأدب والدلالة) عدداً وتختلف عنها ترتيباً، ونقصد تحديداً ما يتصل بالمصطلحين الثاني والثالث عندهما؛ فتودوروف يجعل من المصطلح الثاني (الحرفي) حاملاً لمفهوم نوعية الآداء النصي الكتابي، ويجعل من المصطلح الثالث (إجراء التلفظ) حاملاً لمفهوم نظام السرد وترتيب مكوّناته، وهو ما يستهدفه بالدراسة وإعمال الشعرية فيه بوصفه موضوعها.

في حين نرصد عند جنيت ترتيباً مختلفاً؛ إذ يُسند للمكون الثاني مصطلح (الحكي) ، وهو ما ينسجم وطبيعة المكون الثالث عند تودوروف، ويسمي المكوّن الثالث بمصطلح (السرد) وهو ما يمكن له أن يقترب من المعنى الذي يريده تودوروف من المكوّن الثاني في العمل السردي.

هذا فيما يتصل بالانطباع الأول، أما الانطباع الآخر فيدعمه جنيت نفسه عندما يُورد في مسار مفهوم (الحكي) المكوّن الثاني مصطلحات متعددة يمنحها صفة الترادف، وهي الدوال: الملفوظ، الخطاب، النص والتي تكوّن حزمة مصطلحات لسانية بامتياز؛ الأمر الذي يترجم عن تأثر بيّن لتحليل السرد (شعريات السرد) بمقولات التفكير اللساني ومنجزاتها المفهومية، مع احتفاظنا بحق الحذر والتشكيك، إزاء الفروق الدلالية الدقيقة بين كل مصطلح من المصطلحات المذكورة مفهوماً لمصطلح (الحكي) ؛ لأنها قد تتقارب، ولكنها لا تتطابق في مفهوماتها، وبالذات بين مصطلحي: الملفوظ من جهة، ومصطلح الخطاب من جهة

أخرى؛ فالناقد يجعل من مكوّن الحكي ـ كما سنعرف ـ مجالاً للتحليل السردي، وهو مجال نظامي مُنجز ومتعالٍ يتسم بالثبات إلى حدّ إمكانية مقاربته بنيوياً، في حين أن مفهوم مصطلح (الخطاب) يكتسب في الأدبيات اللغوية، وبالذات في فرعها الدلالي معنى تداولياً تواصلياً.

سعى جيرار جنيت إلى الاستفادة من مصطلحاته الثلاثة السابقة للظفر بتصور شمولي حول طبيعة العمل السردي: مضموناً، وبناء شكلياً، وممارسة تواصلية براغماتية، مما يعكس حرصاً على الفوز بقيمة مضافة للدرس الأدبي في سياق سعيه نحو العلمية والموضوعية؛ إذ أن تفكيك موضوع النظر النقدي إلى عناصره

التفصيلية البانية له، يُبرز سعياً إلى استيعاب كل تفاصيل هذا الموضوع؛ لكي لا يفلت عنصر منها، بما قد يشكك في كفاءة النظرية التي يسعى جنيت لإقامتها.

:هو المصطلح الذي يطلقه جيرار جنيت لتسمية دراسة Narratologie علم السرد

السرد وتحليله دراسة تستجيب لتطور الدرس النقدي الحديث 50، ولم نجد ذكراً لهذا المصطلح في دراسات تودوروف النقدية، صحيح أنه تحدث عن (الأدبية) و (الشعرية) ، وهما مصطلحان لا يتحددان بجنس أدبي محدد، وإنما يتحددان بطبيعة ونظام عملهما في تحليل النص الأدبي عموماً.

مصطلح علم السرد أكثر تداولاً في كتابات جنيت، ويستفيد هذا المصطلح في شيوعه من كونه يشير إلى علم يستهدف جنساً أدبياً محدداً بالتحليل وهو السرد الأدبي.

يهتم بالسرد من بين أجناس أدبية Narratologie فإذا كان مصطلح علم السرد

أخرى، فإن ذلك لا يعني، عند جنيت، اهتماماً بعموم السرد وبكل مكوناته، بل ينصرف هذا العلم، على الأقل من الجهة التي يوظفه من خلالها جيرار جنيت، إلى مكوّن واحد من مكونات العمل السردي، وهو الحكي. فبالنظر إلى كون دراسته (خطاب الحكي) ، تروم بناء نظرية في علم السرد، فإن ذلك يتأتى من خلال عكوفها على دراسة مكوّن الحكي في العمل السردي؛ لأنه (يمثل الموضوع الخاص والنوعي) 51 لدراسة رواية مارسيل بروست، فالحكي يشكّل الملمح النوعي الوحيد للسرد على

حد قول الناقد 52؛ فهو من ثم مجال بحثه الوحيد في دراسته، مستفيداً من المفهوم المحدد والمؤطر الذي يمنحه لمصطلح الحكي كما سبق وبيّنا.
وبخلاف تودوروف، الذي لم يكتف بدراسة مستوى الخطاب كما يسميه، بل نراه ينصرف إلى محاولة وضع مقاربة علمية لمكوّن القصة في العمل السردي (رواية فلوبير) ، نجد أن جنيت توقف عند مكوّن الحكي بالدراسة والتحليل، وقد كان ملتزماً بهذا المبدأ منذ إعلانه عنه في بداية دراسته إلى منتهاها، (فكما يدل على ذلك عنوان الكتاب، أو قريباً منه، فإن دراستنا تهتم أساساً بالحكي بالمعنى العام أي الخطاب السردي) 53.

قضايا علم السرد Narratologie

في دراسته لمكوّن الحكي في العمل السردي، يقسم جيرار جنيت هذا المكوّن إلى ثلاثة مستويات، ويضع لكل مستوى منها مصطلحاً يسميه به، وهي:

الزمن Temps ، الصيغةMode ، الصوت Voix

وتحت كل مستوى من هذه المستويات، تتداعى مصطلحات نقدية تفصيلية، تطرح معها مفهوماً معرفياً ونقدياً يغطي أغلب قضايا نظام السرد.

1 ـ الزمن.

يدرس الناقد تحت هذا المصطلح كل صور العلاقة بين زمن القصة، وزمن الخطاب، ويسمي كل صورة منها بمصطلح يعرّف بها:

النظام الزمني Ordre ـ المدة الزمنية Duree ـ المعاودة Frequence

أ ـ النظام الزمني 54 للحكي.

ومفهوم هذا المصطلح (مقابلة نظام ترتيب الأحداث أو مقاطع زمنية في الخطاب السردي بنظام تتابع الأحداث أو المقاطع الزمنية نفسها في القصة) 55، وينجم عن المقابلة بين هذين النظامين نقاش يفضي إلى استحداث مصطلحات نقدية تفصيلية يطرحها جنيت في ثنايا دراسته لرواية مارسيل بروست؛ فيتناول مصطلح:

Prolepse ، ومفهومه (تعيين كل عملية سردية تقوم على حكاية أو استدعاء حدثٍ لاحق قبل آوانه) 56.

(استباق) بديلاً لمصطلح عام ينتمي إلى اللغة، ويكتسب Prolepse ويقترح جنيت

مفهوماً متداولاً، لا يرتبط بحقل النقد الأدبي تحديداً، وهو Anticipation مصطلح
الذي يدل على الاستباق والتبكير بذكر ما سيقع، ثم يقابل جنيت المصطلح السابق
الذي يفيد مفهوم Analepse الاستباق بمصطلح آخر يعارضه، وهو: Prolepse
(استدعاء، بعد زمن، حدث سابق على لحظة القصة حيث يكون السارد) 57، ويضع
(استرجاع) معوضاً Analepse جنيت، كما وقع مع المصطلح السابق، مصطلح
استرجاع، وله في هذا الإجراء Retrospection لمصطلح عام، هو مصطلح
المُبادر إلى استحداث مصطلحين بديلين للمصطلحين الشائعين والعاملين مبرر أن المصطلحين المتروكين يحيلان على إيحاءات نفسية يجب تجنبها 58، لمن يروم بناء نظرية موضوعية في نقد السرد. ولكل مصطلح من المصطلحين السابقين قسمين.
يتعلق بمدة Analepse externe قد يكون خارجياً Analepse فالاسترجاع ... وهو Analepse interner تتجاوز الحكي الأول 59،وقد يكون استرجاعاً داخلياً
عكس الأول إذ يقوم السارد في هذه الحالة باستدعاء قصة هي امتداد للحكي الأول ومتصلة به.
وللاستباق أيضاً هذين القسمين: خارجي، وداخلي، وينسحب عليهما نفس مفهوم السعة السابق، مع فرق طبيعة استدعاء الزمن، الذي يقوم هنا على سرد ما سيقع.
الذي يترجمه سعيد Portee ويسوق جنيت مصطلحين كبيرين آخرين، هما:
يقطين ب السعة 60، ونفضل عليه ترجمته بالامتداد، والذي مفاده كل (مساحة زمنية حيث يمكن للمفارقة أن تنتقل بين الماضي أو المستقبل، مع درجة ابتعاد كبيرة أو صغيرة من الزمن الحاضر للحظة القصة، وإذا بالحكي يتوقف ليمنحها مكاناً) 61.

الذي يعني تغطية مدة من القصة Amplitude ومصطلح آخر، هو مصطلح السعة
أكثر أو أقل طولاً 62.
وفي إبرازه Portee يتناول جنيت مصطلح المفارقة Anachronie لمفهوم الامتداد
والذي يحيل على كل أشكال المفارقة بين النظامين الزمنيين للقصة والخطاب 63.

ب ـ المدة Duree
ومفهومها: مقابلة مدة الحكي بمدة القصة التي يقدمها 64، ويوظّف جنيت، أحياناً،
؛ لينشئ تقابلاً كمياً بين القصة مقاسة بالثواني La vitesse مصطلح السرعة
والدقائق، والساعات، والأيام ... ومدة طول النص مقاساً بالأسطر والصفحات 65.
ويتوزع هذا المصطلح بدوره على مصطلحات جزئية، وهي:
ـ المشهد Scene ـ التلخيص Sommaire ـ الحذف Ellipse 66 الوقفة Pause
ويختلف مفهوم كل مصطلح عن الآخر، بحسب طول أو قصر القصة بالنسبة للخطاب السردي الذي يحكيها.

المعاودة Frequence
؛ ليعني استقصاء Pepetition وقد يطلق على مفهوم المعاودة مصطلح التكرار
حالات إعادة القصة أو الخطاب 67. وللمعاودة أشكال مختلفة، لم يجعل لها الناقد مصطلحات معلنة تسميها، بل اكتفى بمصطلح المعاودة مصطلحاً مركزياً يشمل في مفهومه هذه الأشكال، ويلاحظ اصرار جيرار جنيت على مصطلح المعاودة
التكرار؛ ليستمر في سعيه إلى تثبيت Repetition بديلاً لمصطلح Frequence
مصطلحات نوعية للمفهومات النقدية، متفادياً الدوال اللغوية العامة، التي قد تحيل على معاني مصطلحاته، ولكنها تقصر عنها، وقد تتجاوزها أحياناً بالنظر إلى عموميتها.

ـ صيغة السرد Le mode 2

التي تعني: Mode يستفيد نقّاد السرد، ومنهم جنيت، من المعنى المعجمي للفظة
الطريقة، الكيفية، ويبنون على هذا المعنى، المفهوم النقدي الخاص الذي يدل عليه
بعد أن يصير مصطلحاً؛ فيعني: تنظيم المعلومات السردية 68، ... Mode اللفظ
ويمكن عندها التحكم في السرد قلة وكثرة، وتوجيه السرد وفق وجهة النظر هذه أو 69. Le mode السردية ... تلك، وهو ما يعنيه جنيت بمصطلح الصيغة
وقد منح جنيت هذا المصطلح مفهوماً واسعاً خالف فيه تزفيتان تودوروف؛ ذلك أن جنيت قد أدرج تحت مصطلح الصيغة مصطلحين تفصيليين باعد بينهما تودوروف، وكأنه Perspective والمنظور Distance في دراساته للسرد، وهما مصطلح:
أراد بمصطلح الصيغة طريقة توجيه وتنظيم وتوزيع أساليب السرد، وكذلك ضبط وتوزيع أنماط الرؤية وتنظيم المعلومات. فجمع تحت هذا المصطلح سؤالي: من يتكلم؟ ومن يرى؟

المسافة Distance

يقصد جيرار جنيت بهذا المصطلح الدلالة على معنى المسافة التي تفصل السارد عن المسرود وأصواته المنتجة له، فالمصطلح يخص به صيغة السرد، أي طريقته، لا صيغة المعلومات السردية وطريقة ضبطها، وتنتج عن ذلك ثلاثة مصطلحات، تسمي ثلاثة أنواع من الخطاب:

ـ مصطلح الخطاب المعروض Discours rapporte 1

وهو الخطاب المنتج من طرف شخصيات العمل السردي الروائي.

ـ مصطلح الخطاب المسرود Discours Narrativise 2

وهو الخطاب المنتج من طرف سارد العمل السردي الروائي.

ـ مصطلح الخطاب المنقول Discours Transpose 3

خطاب ينتجه السارد ويعود للشخصيات، مع قدرته على التصرف فيه 70.

المنظور السردي.

يستخدم جنيت مصطلح المنظور استخداماً مؤقتاً، ويسمح له هذا التوظيف العابر بإقامة نقاش حول مفهومه، لم نره يفعل مثله مع المصطلحات السابقة جميعها؛ فهو يخصص هذا المصطلح لطرح مفهوم تنظيم المعلومات السردية 71، والإجابة عن سؤال: من يرى؟

يتناول الناقد مصطلحات عديدة لنقّاد مختلفين هوية ومرجعية، حاولوا تسمية هذا المفهوم. ولم يحظ نقد السرد بنقاش وافر حول مفهوم معين، ولا وفرة في المصطلحات كالذي شهده مع مفهوم كيفية تنظيم المعلومات السردية والمصطلحات التي تسمي هذا المفهوم، وقد استفاد جنيت من هذا النقاش في مسألتين، الأولى منهجية؛ حيث إنه سعى إلى تجاوز كثير من التداخل والتشابك بين عناصر هذا المفهوم، وعناصر أخرى قد لا تنتمي جوهرياً لطبيعته النقدية والمعرفية؛ فشذّب من زيادات المفهوم، وقلّص من امتداداته غير المجدية، والمسألة الأخرى تتصل باتجاهه إلى طرح مصطلحه الخاص لتسمية مفهوم تنظيم السرد وضبط معلوماته،

"التبئير" بديلاً لمصطلحات مثل: حصر Focalisation فكان أن أطلق مصطلح:

المجال، وجهة النظر، الرؤية، المظاهر ... ويرى الناقد في مصطلحه ملاءمة وكفاءة تغني عن غيره من المصطلحات السابقة 72.

وتنشأ عن المصطلح الأساسي (التبئير) مصطلحات تفصيلية يقترحها جنيت لتسمية أوجه التبئير المختلفة، وهي:

ـ مصطلح: حكي غير مبأر Recit non focalise 1

أو حكي بتبئير صفر Recit a focalisation zero

ويقوم مفهومه على هيمنة السارد.

ـ مصطلح: حكي بتبئير داخلي Recit a focalisation intrne 2

ويقوم مفهوم هذا المصطلح على مركزية داخل الشخصية ومساواتها للسارد في المعرفة والإدراك.

ـ مصطلح: حكي بتبئير خارجي Recit a focalisation externe 3

حيث يفقد القارئ القدرة على معرفة أفكار البطل ومشاعره 73.

بين تودوروف وجنيت.

لابد أن يُفضي الرصد السابق لمصطلحات الناقدين في دراساتهما المستدعاة هنا إلى تقييم مستوى التفاوت بينهما، ويمكن أن نصوغ هذا المعنى في النقاط الآتية:

1 ـ جاءت دراسات جيرار جنيت لاحقة لأغلب الدراسات النقدية البنيوية في تحليل الخطاب السردي؛ الأمر الذي هيأ أمامه مدوّنة نقدية مهمة يستطيع الانطلاق منها لصياغة نظريته في تحليل الحكي.

2 ـ لقد أظهر جنيت حرصاً بيّناً على التجديد في مصطلح نقد السرد، بل رغبة في اجتراح مصطلحات بديلة للمصطلح النقدي المتاح، وقد أشبع، بدرجة ما، رغبته تلك، وإن أفضت إلى تأزيم واقع المصطلح النقدي، بسبب كثرة المصطلحات الدالة على المفهوم الواحد.

3 ـ لم يهتم تودوروف بتفريع المصطلحات التفصيلية للمصطلح المركزي، كما كان الأمر مع جيرار جنيت الذي لاحظنا وفرة في المصطلحات النقدية التفصيلية التي يطرحها في ثنايا نقاشه حول مفهوم المصطلح المركزي.

4 ـ لم يمنح تودوروف مفهوم الزمن في السرد حاجته من البحث والتحليل، بخلاف جيرار جنيت الذي اعترف له النقّاد بشمول ودقة النقاش الذي أقامه حول مفهوم الزمن في السرد.

5 ـ لقد وقع جيرار جنيت في خلط مفهومي عندما زاوج بين مفهومي الصيغة (من يتكلم؟) والرؤية (من يرى) في مجال نقدي واحد، وهو ما تفاداه تودوروف، الذي ميّز في دراسته بين هذين المفهومين، من خلال إطلاق مصطلحين مختلفين، وتخصيص كل مفهوم منهما بمجال نقدي محدد لإعمال التفكير النقدي.